عن الدنيا ، ومرغباً له فى الأخرى ، فهو بحمد الله فيه من الفوائد التى لا يظفر بها فى كتاب سواه ، فما كان فيه من صواب فمن الله ورسوله ، وما كان فيه من خطأ فمنى ومن الشيطان ، والله سبحانه المسؤل أن يوفقنى لاتمامه ، بفضله وامتنانه ، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم ، وأن ينفع به مؤلفه وكاتبه وقارئه وسامعه انه سميع قريب وهو حسبنا ونعم الوكيل *

﴿ الباب الأول ﴾

فى المصيبة وحقيقتها وما أعد الله لمسترجعها

قال الله تعالى : (الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله و إنا اليه راجعون. أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون) قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : نعم العدلان ونعمت العلاوة (أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة) الا ية ذكره البخارى تعليقاً . وقال تعالى : (ما أصاب من مصيبة الا باذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه) . قال علقمة وجماعة من المفسرين : هى المصائب تصيب الرجل فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم . والآيات فى هذا الباب كثيرة. قال أهل اللغة : يقال مصيبة ومصابة ومصوبة . قالوا وحقيقته الأمر المكروه يحل بالانسان . وقال القرطبى :المصيبة كل ما يؤذى المؤمن ويصيبه . يقال أصابه إصابة ومصابة ومصابه ، والمصيبة واحدة المصائب . والمصوبة بضم الصاد مثل المصيبة . واجمعت العرب على همز المصائب وأصله الواو كأنهم شبهوا الأصل بالزائد ، ويجمع على مصاوب وهو الاصل وعلى مصائب ، والمصاب الاصابة قال الشاعر :

أسليم إن مصابكم رجلا أهدى السلام تحية ظلم

وصاب السهم القرطاس يصيبه صيباً لغة فى أصابه ، والمصيبة النكبة ينكبها

الانسان وإن صغرت ، وتستعمل فى الشر ، وروى عكرمة مرسلا ان مصباح النبى صلى الله عليه وسلم انطفأ ذات ليلة ، فقال : إنا لله وإنا اليه راجعون . فقيل : أمصيبة هى يارسول الله ؟ قال : نعم ! كل ما أذى فهو مصيبة . وفى صحيح مسلم من حديث أبى سعيد وأبى هريرة رضى الله عنهما ، أنهما سمعا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « مايصيب المؤمن من وصب ولا نصب ولاسقم ولا حزن حتى الهم يهمه الا كفر الله به من سياآته » . والوصب والنصب التعب ، وفى الصحيحين عن عروة عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من مصيبة تصيب المسلم الا كفر الله عز وجل بها عنه حتى الشوكة يشاكها » وقال الامام أحمد : ثنا يونس ثنا ليث — يعنى ابن سعد — عن يزيد بن عبدالله عن عمرو بن أبى عمرو عن المطلب عن أم سلمة قالت : أتانى أبوسلمة يوماً من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : لقد سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم قولا سررت به . قال : « لا تصيب أحداً من المسلمين مصيبة فيسترجع عند مصيبته ثم يقول اللهم أجرنى فى مصيبتى واخلف لى خيراً منها الا فعل ذلك به » . قالت أم سلمة : فحفظت ذلك منه ، فلما توفى أبو سلمة استرجعت فى مصيبتى وقلت : اللهم أجرنى فى مصيبتى واخلف لى خيرا منه ، وفى لفظ خيرا منها ، ثم رجعت الى نفسى وقلت : من أين خير لى من أبى سلمة ، فلما انقضت عدتى استأذن على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أدبغ أهابا لى ، فغسلت يدى من القرظ وأذنت له ، فوضعت له وسادة من أدم حشوها ليف ، فقعد عليها ، فخطبنى الى نفسى ، فلما فرغ من مقالته قلت يارسول الله : ما بى أن لا تكون بك الرغبة ، ولكنى امرأة فى غيرة شديدة ، فأخاف أن ترى منى شيئا يعذبنى الله به ، وانا امرأة قد دخلت فى السن وانا ذات عيال . فقال : « اما ما ذكرت من الغيرة فسوف يذهبها الله عز وجل عنك ، وأما ما ذكرت من السن فقد أصابنى مثل ما أصابك ، وأما

ماذكرت من العيال فانما عيالك عيالى » قالت : فقد سلمت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتزوجها رسول الله ، فقالت أم سلمة بعد : أبدلنى الله بأبى سلمة خيراً منه رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد روى هذا الحديث بعدة طرق فى الصحاح والمسانيد وسيأتى فيما بعد إن شاء الله .

﴿ فصل ﴾

وقد جعل الله كلمات الاسترجاع وهى قول المصاب : إنا لله وإنا اليه راجعون ملجأ وملاذا لذوى المصائب ، وعصمة للممتحنين من الشيطان ، لئلا يتسلط على المصاب فيوسوس له بالافكار الرديئة ، فيهيج ما سكن ، ويظهر ما كمن ، فاذا لجأ الى هذه الكلمات الجامعات لمعانى الخير والبركة ، فان قوله ـ انا لله ـ توحيد واقرار بالعبودية والملك ، وقوله ـ وانا اليه راجعون ـ اقرار بان الله يهلكنا ثم يبعثنا فهو إيمان بالبعث بعد الموت ، وهو إيمان أيضاً بان له الحكم فى الأولى ، وله المرجع فى الأخرى فهو من اليقين ان الأمر كله لله فلاملجأ منه الا اليه . وروى مسلم فى صحيحه من حديث أم سلمة رضى الله عنها قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله ، إنا لله و إنا اليه راجعون اللهم أجرنى فى مصيبتى واخلف لى خيراً منها . وروى مسلم أيضاً عن أم سلمة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اذا حضرتم المريض أو الميت فقولوا خيراً فان الملائكة يؤمنون على ما تقولون » قالت : فلما مات أبو سلمة أتيت النبى صلى الله عليه وسلم فقلت : يارسول الله إن أبا سلمة قدمات . قال : «قولى اللهم اغفرلى وله واعقبنى منه عقبى حسنة» . فقلت ، فاعقبنى الله من هو خير لى منه محمداً صلى الله عليه وسلم . هكذا روى بالشك اذا حضرتم المريض أو الميت هذا لفظ مسلم . وقد تقدم معنا هذا الحديث من طريق أخرى عن ابن سفينة مولى أم سلمة عن أم سلمة قالت : سمعت رسول الله صلى الله وسلم يقول : « ما من عبد تصيبه مصيبة

فيقول إنا لله و إنا اليـه راجعون اللهم أجرنى فى مصيبتى واخلف لى خيراً منها الا آجره الله فى مصيبته وأخلف له خيراً منها » . قالت : فلما توفى أبو سلمة قلت : من خير من أبى سلمة صاحب رسول الله صلى الله عليـه وسلم ؟ قالت : ثم عزم لى فقلتها فتزوجت رسول الله صلى الله عليه وسلم . وروى مسلم نحوه من حديث سعد بن سعيد الانصارى أخى يحيى بن سـعيد عن عمر بن كثير عن ابن سفينة فذكر نحوه .

والمقصود ان هذا تنبيه على قوله تعالى : (وبشر الصابرين) اما بالخلف كما أخلف الله تعالى لأم سلمة بدل زوجها أبو سلمة رسول الله صلى الله عليه وسلم حين تبعت السنة وقالت ما أمرت به ممتثلة طائعة ، ان البر له والخير فيما قاله الله ورسوله ، وان الضلال والشقاء فى مخالفة الله ورسوله ، فلما علمت رضى الله عنها ان كل خـير فى الوجود اما عام واما خاص فهو من جهة الله ورسوله ، وان كل شر فى العالم أو كل شر مختص بالعبد فسببه مخالفة الله ورسوله ، فلما قالت هذه الـكلمات حصل لها مرافقة الرسول فى الدنيا والآخرة. وقد يحصل للعبد بكلمات الاسترجاع منزلة عالية وثوابا جزيلا كما فى حديث أبى موسى وسيأتى ذكره وفيه : فيقول الله تعالى لملائـكته ماذا قال عبدى ؟ فيقولون : حمدك واسترجع ، فيقول الله تبارك : أبنوا لعبدى بيتاً فى الجنة وسموه بيت الحمد . وقد تقدم الاسترجاع فى المصيبة وان قائله عليه الصلوات من ربه والرحمة وهو من المهتدين . وقول عمر : نعم العدلان ونعمت العلاوة وانه أراد بالعدلين الصلوات ، والرحمة وبالعلاوة الهداية والله أعلم . وقيل المراد استحقاق الثواب ، والى تسهيل المصاب ، وتخفيف الحزن ، أولئك عليهم صلوات من ربهم ، فالصلاة من الله الرحمة ومن الملائكة الاستغفار ، ومن الآدمى التضرع والدعاء . وقال أبو العالية : صلاة الله ثناءه عليه عند الملائكة ، وصلاة الملائكة الدعاء ، وظاهر الآية والله أعـلم أن الصلاة من الله غير الرحمة ، فانه تعالى عطف الرحمة على الصلاة فعلم التغاير .

﴿ فصل ﴾

فى تسلية أهل المصائب بالعلاج الالهى النبوى

فالالهى قوله تعالى : (وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا اليه راجعون) وآيات الصبر كثيرة جدا . والنبوى قوله صلى الله عليه وسلم : « ما مسلم تصيبه مصيبة فيقول إنا لله وإنا اليه راجعون اللهم أجرنى فى مصيبتي واخلف لى خيرا منها الا أخلف الله خيرا منها » وقد تقدم وأمثال ذلك من الأحاديث . وقد انتقت هذه الكلمة ـ إنا لله وإنا إليه راجعون ـ علاجا من الله ورسوله لأهل المصائب . فانها من أبلغ علاج المصائب وأنفعه للعبد فى عاجله وآجله ، فانها تتضمن أصلين عظيمين إذا تحقق العبد بمعرفتهما تسلى عن مصيبته ، أحد الأصلين أن يتحقق العبد أن نفسه وأهله وماله وولده ملك لله عز وجل حقيقة ، وقد جعله الله عند العبد عاريه فاذا أخذه منه فهو كالمعير يأخذ عاريته من المستعير ، وأيضا فانه محفوف بعدمين ، عدم قبله وعدم بعده ، وملك العبد له متعة معارة فى زمن يسير ، وأيضا فانه ليس هو الذى أوجده عن عدم حتى يكون ملكه حقيقة ولا هو الذى يحفظه من الافات بعد وجوده ، ولا يبقى عليه وجوده فليس له فيه تأثير ولا ملك حقيقى . وأيضا فانه متصرف فيه بالامر تصرف العبد المأمور المنهى ، لا تصرف الملاك ولهذا لا يباح له من التصرفات فيه الا ما وافق أمر مالكه الحقيقى ، والثانى أن مصير العبد ومرجعه الى الله مولاه الحق ، ولا بد ان يخلف الدنيا وراء ظهره ويأتى ربه يوم القيامة فرداً كما خلقه أول مرة بلا أهل ولا مال ولا عشيرة ، ولكن يأتيه بالحسنات والسيآت . فاذا كانت هذه بداية العبد وما خوله فيه ، ونهايته وحاله فيه ، فكيف يفرح العبد بولد أو مال أو غير ذلك من متاع الدنيا ، أم كيف يأسى على مفقود ؟ ففكرة العبد فى بدايته ونهايته من أعظم علاج المصائب ، ومن علاجه أن يعلم علم اليقين أن ما أصابه لم

يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه. قال تعالى : (ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم الا فى كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور) ومن تأمل هذه الآية الكريمة وجد فيها شفاء أدواء المصائب ، وكل ماذكرناه فى هذا الفصل فهو فى هذه الآية فتدبر ذلك .

﴿ فصل ﴾

ومن تسلية أهل المصائب أن ينظر المصاب فى كتاب الله وسنة رسول الله فيجد أن الله تعالى أعطى لمن صبر ورضى ما هو أعظم من فوات تلك المصيبة باضعاف مضاعفة ، وأنه لوشاء لجعلها أعظم مما هى ، ومن أنفع ما المصاب أن يطفئ نار مصيبته ببرد التأسى باهل المصائب وليعلم أنه فى كل قرية ومدينة بل فى كل بيت من أصيب ، فمنهم من أصيب مرة ، ومنهم من أصيب مرارا ، وليس ذلك بمنقطع حتى يأتى على جميع أهل البيت ، حتى نفس المصاب فيصاب أسوة أمثاله ممن تقدمه ، فانه إن نظر يمنة فلا يرى الا محنة ، وإن نظر يسرة فلا يرى الا حسرة ، وذكر أبو الفرج بن الجوزى باسناده عن عبدالله بن زياد قال : حدثنى بعض من قرأ فى الكتب أن ذا القرنين لما رجع من مشارق الأرض ومغاربها وبلغ أرض بابل مرض مرضاً شديداً ، فلما أشفق أن يموت كتب الى أمه : يا أماه اصنعى طعاماً واجمعى من قدرت عليه ، ولا يأكل طعامك من أصيب بمصيبة ، واعلمى هل وجدت لشئ قراراً باقياً ، وخيالا دائما ، إنى قد علمت يقينا أن الذى أذهب اليه خير من مكانى . قال : فلما وصل كتابه صنعت طعاماً ، وجمعت الناس ، وقالت لا يأكل هذا من أصيب بمصيبة ، فلم يأكلوا ، فعلمت ما أراد ، فقالت : من يبلغك عنى أنك وعظتنى فاتعظت ، وعزيتنى فتعزيت ، فعليك السلام حياً وميتاً . فاذا علم المصاب أنه لوفتش العالم لم ير فيهم الا مبتلى ، إما بفوات محبوب ، أو حصول

مكروه ، فسرور الدنيا أحلام نوم ، أو كظل زائل ، إن أضحكت قليلا أبكت كثيراً ، وإن سرت يوماً ساءت دهراً ، وإن متعت قليلا منعت طويلا ، وما ملأت داراً حبرة الا ملأتها عبرة ، وماحصل للشخص فى يوم سروراً الا خبأت له فى يوم شروراً ، قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : لكل فرحة ترحة . وما ملئ بيت فرحا الا ملئ ترحا . وقال ابن سيرين : ما كان ضحك قط الا كان بعده بكاء . فيعلم العبد أن فوت ثواب الصبر والتسليم وهو الصلاة والرحمة والهداية فى قوله تعالى : (إنا لله وإنا اليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون) وقد تقدم ذلك فما ضمنه الله على الصبر والاسترجاع ، أعظم من المصيبة فى الحقيقة والله أعلم .

﴿ فصل ﴾

ومن تسلية أهل المصائب أن ينظر العبد بعين بصيرته فيعلم أن مرارة الدنيا هى بعينها حلاوة فى الآخرة ، يقلبها الله تعالى ، وحلاوة الدنيا هى بعينها مرارة فى الآخرة ، ولأن ينتقل من مرارة منقطعة الى حلاوة دائمة ، خير من عكس ذلك ، فان خفى عليك ذلك فانظر الى قول الصادق المصدوق وهو قوله صلى الله عليه وسلم : « حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات » وكذلك قوله فى الصحيح : « يؤتى يوم القيامة بأنعم أهل الدنيا من أهل النار فيصبغ فى النار صبغة ثم يقال : « يا ابن آدم هل رأيت خيرا قط ؟ هل مرّ بك نعيم قط ؟ فيقول : لا والله يارب ، ويؤتى بأشد الناس بؤساً فى الدنيا من أهل الجنة فيصبغ فى الجنة صبغة فيقال له يا ابن آدم هل رأيت بؤساً قط ؟ هل مر بك شدة قط ؟ فيقول : لا والله يارب » الحديث وهذا المقام تتفاوت فيه عقول الناس . وتظهر حقائق الرجال ، فاكثر أهل زماننا يؤثر الحلاوة المنقطعة على الحلاوة الدائمة التى لا تزول ، ولم يحتمل مرارة ساعة لحلاوة الأبد ، ولا ذل ساعة لعز الابد ، ولا محنة ساعة

العافية الابد ، فان الحاضر عنده شهادة ، والمنتظر غيب ، والايمان ضعيف وسلطان الشهوة حاكم ، فتولد من ذلك إيثار العاجلة و رفض الآخرة وهذا حال النظر الواقع على ظواهر أكثر أهل زماننا فى أوائل أمورهم ومبادئها ، وما ذاك الا لجهم هذه الحياة الدنيا قال وهب بن منبه : كان عيسى بن مريم عليه السلام يقول: بحق أقول لكم ، إن أشدكم حباً للدنيا أشدكم جزعا على المصيبة . وأما النظر الثاقب الذى يخرق حجب العاجلة ، ومحاورة العواقب والغايات فله شأن آخر فادع نفسك الى ما أعد الله لاوليائه وأهل طاعته من النعيم المقيم ، والسعادة الأبدية والفوز الاكبر ، وما أعد الله لاهل البطالة والاضاعة من الخزى والخسران والعذاب الدائم ، ثم اختر أى القسمين أليق بك ، وكل يعمل على شاكلته ، وكل أحد يذهب الى ما يناسبه وما هو الاولى به ، وهذا نصح أخيك فيما يحسن بك ويسليك .

﴿ فصل ﴾

ومن تسلية أهل المصائب أن يستعينوا بالله ويتكلوا عليه، ويتعزوا بعزاء الله تعالى ويمتثلوا أمره فى الاستعانة بالصبر والصلاة ، ويعلموا أن الله مع الصابرين ، ويطلبوا استنجاز ما وعد الله به عباده على الصبر، وفى حديث أنس بن مالك قال : ألا أحدثكم بحديث لا يحدثكم به أحد غيرى ؟ كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم جلوساً فضحك فقال : تدرون مما ضحكت ؟قالوا: الله ورسوله أعلم . قال : « عجبت للمؤمن أن الله عز وجل لايقضى له قضاء الا كان خيراً له » وذكر ابن أبى الدنيا باسناده قال قال ابراهيم بن داود : قال بعض الحكماء : ان لله عباداً يستقبلون المصائب بالبشر ، قال : فقال أولئك الذين صفت من الدنيا قلوبهم ، ثم قال : قال وهب بن منبه : وجدت فى زبور داود يقول الله تعالى : (ياداود هل تدرى من أسرع الناس ممراً على الصراط الذين يرضون بحكمى وألسنتهم رطبة من ذكرى) فالمؤمن الموفق ــ نسأل الله تعالى حسن التوفيق ــ من يتلقى المصيبة

بالقبول ، ويعلم أنها من عندالله لا من عند أحد من خلقه ، ويجتهد فى كتمانها ما أمكن قال عبدالعزيز بن أبى رواد : ثلثة من كنوز الجنة كتمان المصيبة ، وكتمان المرض ، وكتمان الصدقة ، وقال بعض السلف: ثلثه يمتحن بها عقول الرجال ، كثرة المال ، والمصيبة ، والولاية ، وقال عبد الله بن محمد الهروى : من جواهر البر كتمان المصيبة حتى يظن أنك لم تصب قط . وقال عون بن عبد الله : الخير الذى لا شرّ معه ، الشكر مع العافية والصبر مع المصيبة .

﴿ فصل ﴾

ومن أعظم المصائب المصيبة فى الدين ، فهى من أعظم مصائب الدنيا والآخرة وهى نهاية الخسران الذى لا ربح معه ، والحرمان الذى لا طمع معه ، وقد حكى ابن أبى الدنيا عن شريح أنه قال : إنى لأصاب بالمصيبة فاحمد الله عليها أربع مرات ، وأشكره إذ لم تكن أعظم مما هى ، وإذ رزقنى الصبر عليها ، وإذ وفقنى الاسترجاع لما أرجوه فيه من الثواب ، وإذ لم يجعلها فى دينى * ومن أعظم المصائب فى الدين موت النبى صلى الله عليه وسلم ، لان المصيبة به أعظم من كل مصيبة يصاب بها المسلم ، لان بموته صلى الله عليه وسلم انقطع الوحى من السماء الى يوم القيامة ، وانقطعت النبوات ، وكان موته أول ظهور الشر والفساد بارتداد العرب عن الدين ، فهو أول انقطاع عرى الدين ونقصانه ، وفيها غاية التسلية عن كل مصيبة تصيب العبد وغير ذلك من الأمور التى لا أحصيها ، قال أنس بن مالك رضى الله عنهما : مانفضنا أيدينا من التراب من قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أنكرنا قلوبنا . رواه ابن ماجه . واذا أردت أن تعلم أن المصيبة به صلى الله عليه وسلم أعظم من كل مصيبة حدثت فى الدين فانظر الى ما روى عن عائشة رضى الله عنها ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أيها الناس أيما أحد من الناس أو من المؤمنين أصيب بمصيبة فليتعزى بمصيبته بى عن المصيبة التى تصيبه بغيرى ، فان أحداً من أمتى لن يصاب

بمصيبة بعدى أشد عليه من مصيبتى » وهذا من رواية موسى بن عبيد، وقد ضعفه غير واحد من الأئمة لكن روى أبو عمر بن عبد البر باسناده من حديث عطاء بن أبى رباح مرسلا أن رسول الله صلى عليه وسلم قال : « اذا أصاب أحدكم مصيبة فليذكر مصابه بى فانها من أعظم المصائب » ورواه الحافظ أبو نعيم من هذه الطريق أيضا ومن طريق أخرى عن مكحول مرسلا نحوه . ولقد أحسن أبو العتاهية فى نظمه موافقاً لهذا الحديث حيث يقول :

اصبر لكل مصيبة وتجلد ... واعلم بأن المرء غير مخلد
أو ماترى أن المصائب جمة ... وترى المنية للعباد بمرصد
من لم يصب ممن ترى بمصيبة ... هذا سبيل لست عنه بأوحد
فاذا ذكرت محمداً ومصابه ... فاجعل مصابك بالنبى محمد

وفى رواية : واذا ذكرت مصيبة تسلو بها ... فاذكر مصابك بالنبى محمد

واذا أردت أن تعلم تغير الأحوال بموت النبى صلى الله عليه وسلم فاذكر قوله تعالى : (وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم الآية) أفإن مات شرط ، أوقتل عطف عليه ، والجواب انقلبتم ، ودخل ألف الاستفهام على حرف الجر لان الشرط قد انعقد به وصار جملة واحدة، وخبراً واحداً والمعنى أفتنقلبون على أعقابكم إن مات أو قتل ؛ يقال لمن عاد الى ما كان عليه انقلب على عقبيه ، وقيل المعنى فعلتم فعل المرتدين ؛ ومنه انقلب على عقبيه ، وقول أنس وقد تقدم، وروى ابن ماجه من حديث أم سلمة زوج النبى صلى الله عليه وسلم قالت: كان الناس على عهد رسول الله صلى عليه وسلم اذا قام المصلى لم يعد بصر أحدهم موضع قدميه ، فتوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان أبو بكر رضى الله عنه ، فكان الناس اذا قام أحدهم يصلى لم يعد بصر أحدهم موضع القبلة ، فتوفى أبو بكر ، وكان عمر رضى الله عنه فكان الناس إذا قام أحدهم يصلى لم يعد بصر أحدهم موضع القبلة،

فكان عثمان رضى الله عنه ، فكانت الفتنة ، فتلفتت الناس فى الصلاة يمينا وشمالا . واسناده مقارب

والمقصود أن المصائب تتفاوت ، فاعظمها المصيبة فى الدين ـ نعوذ بالله من ذلك ـ هى أعظم من كل مصيبة يصاب بها الانسان ، يؤيد ذلك انه قد جاء فى بعض الآثار أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « المسلوب من سلب دينه ، والمحروم من حرم الاجر » ثم بعد مصيبة الدين المصيبة فى النفس ، ثم فى المال ، فاما المال فيخلفه الله تعالى وهو فداء الانفس ، والنفس فداء الدين ، والدين لافداء له . قال تعالى : (ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم الا فى كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير)

﴿ فصل ﴾

ومن أعظم البشارات لمن أصيب بمصيبة فذكرها بعد مدة طويلة ، فجدد لها استرجاعاً وصبراً ، ماله عند الله من الأجر كلما ذكرها واسترجع . قال الامام أحمد فى مسنده : ثنا يزيد وعباد بن عباد قالا حدثنا هشام بن أبى هشام ثنا عباد بن زياد عن أمه عن فاطمة بنت الحسين عن أبيها الحسين بن على رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ما من مسلم ولا مسلمة يصاب بمصيبة فيذكرها وإن طال عهدها ـ قال عباد : قدم عهدها ـ فيحدث لذلك استرجاعاً الا جدد الله له عند ذلك فأعطاه مثل أجرها يوم أصيب بها » ورواه ابن ماجة من حديث فاطمة بنت الحسين أيضاً ولفظه إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من أصيب بمصيبة فذكر مصيبته فليحدث استرجاعاً وإن تقادم عهدها كتب الله له من الأجر مثله يوم أصيب » لكن فى إسناده مقال . قال سعيد بن جبير : ما أعطى أحد فى المصيبة ما أعطى هذه الأمة ـ يعنى إنا لله و إنا اليه راجعون ـ ولو أعطى أحد لأعطى نبى الله يعقوب عليه السلام ألم تسمع الى قوله فى فقد يوسف : (يا أسفا على يوسف) أولئك

أصحاب هذه الصفة عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون *

﴿ فصل ﴾

ومن تسلية أهل المصائب أن ينظر المصاب ويفرق بين أعظم اللذتين والتمتعين تمتع الحياة الدنيا الفانية، وتمتع الدار الآخرة الباقية، وأدومهما لذة وتمتعاً بما أصيب به ، ولذة تمتعه بثواب الله له على قوله وفعله من استرجاع وصبر ونحوه ، فان ظهر له الرجحان فآثر الراجح فليحمد الله على توفيقه له. وان آثر المرجوح من كل وجه فليعلم أن مصيبته فى عقله وقلبه ودينه ، أعظم من مصيبته التى أصيب بها فى دنياه . وأى نسبة بين تمتعه بمحبوبه فى هذه الدار التى قال الله تعالى فى حقها من أولها الى آخرها : (قل متاع الدنيا قليل) وأى شئ حصل له من القليل ؟ فمن آثر جزء قليل من قليل ينفد ، على جزء كثير من كثير لا ينفد ، فقد اغتيل عقله . قال بعض الحكماء : يحسب الجاهل الشئ الذى هو لا شئ شيئا ، والشئ الذى هو الشئ لا شئ ، ومن لا يترك الشئ الذى هو لا شئ ، لا ينال الشئ الذى هو الشئ ، ومن لا يعرف الشئ الذى هو الشئ ، لا يترك الشئ ، الذى هو لا شئ يريد الدنيا والآخرة . ذكره ابن أبى الدنيا فى كتاب ذم الدنيا *

﴿ فصل ﴾

ومما يسلى المصاب أن يوطن نفسه على أن كل مصيبة تأتيه هى من عند الله وأنها بقضائه وقدره ، وأنه سبحانه وتعالى لم يقدرها عليه ليهلكه بها ، ولا ليعذبه ، وانما ابتلاه ليمتحن صبره ورضاه ، وشكواه اليه وابتهاله ودعاه ، فان وفق لذلك كان أمر الله قدراً مقدورا ، وان حرم ذلك كان ذلك خسرانا مبينا.

قال أبو الفرج بن الجوزى : علاج المصائب بسبعة أشياء (الأول) أن يعلم بأن الدنيا دار ابتلاء ، والكرب لا يرجى منه راحة . قال الشاعر :

وما استغربت عينى فراقا رأيته ولا علمتنى غير ما القلب عالمه

(الثانى) أن يعلم أن المصيبة نابتة (الثالث) أن يقدر وجود ما هو أكثر من تلك المصيبة (الرابع) النظر فى حال من ابتلى بمثل هذا البلاء ، فان التأسى راحة عظيمة . قالت الخنساء :

ولولا كثرة الباكين حولى على اخوانهم لقتلت نفسى
وما يبكون مثل أخى ولكن أعزى النفس عنه بالتأسى

وهذا المعنى قد حرمه الله عز وجل أهل النار، فان المخلدين فيها كل واحد محبوس وحده، فهو يظن أنه لم يبق فى النار سواه (الخامس) النظر فى حال من ابتلى أكثر من هذا البلاء فيهون عليه هذا (السادس) رجاء الخلف ان كان من مضى يصح عنه الخلف كالولد والزوجة . قيل للقمان عليه السلام : ماتت زوجتك ؟ قال : تجدد فراشى . قال الشاعر :

هل وصل عزة إلا وصل غانيـة فى وصل غانية من وصلها خلف

(السابع) طلب الاجر بالصبر فى فضائله وثواب الصابرين وسرورهم فى صبرهم، فان ترقى الى مقام الرضاء فهو الغاية . انتهى كلامه . وقد تقدم معنى ذلك

وما يلحق بعلاج هذه السبعة أشياء وأمور أخر (الثامن) أن يعلم العبد كيف جرى القضاء فهو خير له (التاسع) أن تعلم أن تشديد البلاء يخص الأخيار (العاشر) أن يعلم أنه مملوك وليس للمملوك فى نفسه شئ (الحادى عشر) أن هذا الواقع وقع برضى المالك فيجب على العبد أن يرضى بما رضى به السيد (الثانى عشر) مماثبة النفس عند الجزع ان هذا الأمر لابد منه ، فما وجه الجزع مما لابد منه (الثالث عشر) انما هى ساعة فكأن لم تكن ، وهذه المعانى قد تقدم ما يشبهها ويناسبها ، ويأتى ماهو أتم من ذلك وبالله التوفيق *

(فصل)

ينبغي للعبد أن لا ينكر في هذه الدنيا وقوع هـذه المصائب على اختلاف

أنواعها وما استخبر العقل والنقل أخبراه بأن الدنيا مارستان المصائب ، وليس فيها لذة على الحقيقة الا وهي مشوبة بالكدر ، فكلما يظن فى الدنيا انه شراب فهو سراب ، وعمارتها و إن حسنت صورتها خراب ، وجمعها فهو للذهاب ، ومن خاض الماء الغمر لم يخل من بلل ، ومن دخل بين الصفين لم يخل من وجل ، فالعجب كل العجب ممن يده فى سلة الافاعى كيف ينكر اللسع ، وأعجب منه من يطلب من المطبوع على الضر النفع . قال بعض الادباء :

طبعت على كدر وأنت تريدها صفواً من الاقذاء والا كدار

قال أبو الفرج بن الجوزى : ولولا أن الدنيا دار ابتلاء لم تعتور فيها الامراض والا كدار ، ولم يضق العيش فيها على الانبياء والاخيار ، فآدم يعانى المحن الى أن خرج من الدنيا ، ونوح بكى ثلاثمائة عام ، وابراهيم يكابد النار وذبح الولد ، ويعقوب بكى حتى ذهب بصره ، وموسى يقاسى فرعون ويلقى من قومه المحن ، وعيسى بن مريم لا مأوى له الا البرارى فى العيش الضنك ، ومحمد صلى الله عليه وعليهم أجمعين يصابر الفقر وقتل عمه حمزة وهو من أحب أقاربه اليه ، ونفور قومه عنه ، وغير هؤلاء من الانبياء والأولياء مما يطول ذكره ، ولو خلقت الدنيا للذة لم يكن حظ المؤمن منها . وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم : « الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر » فاذا بان بأنها دار ابتلاء وسجن ومحن ، فلا ينبغى انكار وقوع المصائب فيها *

(فصل)

ذكر أبو الفرج بن الجوزى فى المصائب المختصة بذات الانسان . قال : رأيت جمهور الناس اذا طرقهم المرض أو غيره من المصائب اشتغلوا تارة بالجزع والشكوى ، وتارة بالتداوى ، الى أن يشتد عليهم ، فيشغلهم اشتداده عن الالتفات الى المصالح من وصية ، أو فعل خير ، أو تأهب الموت ، فكم ممن له ذنوب لا يتوب منها ، أو عنده ودائع لا يردها ، أو عليه دين أو زكاة ، أو فى ذمته ظلامة لا يخطر له تداركها ،

وانما حزنه على فراق الدنيا ، اذ لاهم له سواها ، وربما أفاق وأوصى بجور . انتهى كلامه . وسبب ذلك ضعف الايمان كما قال تعالى: (فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد الا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم) وأحدهم لا هم له إلا الدنيا ، ولا يتأسف إلا عليها ، والعين المتطلعة الى الآخرة ضعيفة جداً ، وقد عم هذا أكثر الخلق فى زماننا نعوذ بالله من الخذلان . فينبغى للمتيقظ أن لا يتأسف على مافات ، وأن يتأهب فى حال صحته قبل هجوم المرض ، فربما ضاق الوقت عن عمل ، واستدراك فارط ، أو وصية فان لم تكن له وصية فى صحته فليبادر فى مرضه ، وليحذر الجور فى وصيته ، فانه من المحرمات. فانه يمنع المستحق ويعطى من لا يستحق ، فيحتاج أن يحارب نفسه وشيطانه ، فقد روى أبو داود أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يقول : « اللهم إنى أعوذ بك أن يتخبطنى الشيطان عند الموت » ويعلم انه مملوك لله وليس له فى نفسه شئ . قال الشاعر :

صرت لهم عبداً وما للعبد أن يعترضا

ويعلم أيضاً أن هذا الواقع من المصائب فى نفسه وماله وولده ، وقع برضى مالكه وخالقه ، فيجب على العبد أن يرضى بما يرضى به السيد ، ويعاتب نفسه اذا جزعت ، ويقول لها : اما علمت أن هذا لا بد منه ؟ فما وجه الجزع ؟ وانما هى ساعة كأن لم يكن ما كان . ومن تلمح العواقب هان عليه مرارة الدواء ، والله تعالى الموفق .

قال بعض السلف: رأيت جمهور الناس ينزعجون لنزول البلاء انزعاجا يزيد على الحد ، كأنهم ماعلموا أن الدنيا على ذا وضعت ، وهل ينتظر الصحيح الا السقم ، والسكبير الا الهرم ، والموجود سوى العدم . قال الشاعر :

على ذا مضى الناس اجتماع وفرقة ومبت ومولود (وبشر وأحزان)

ثم قال : ولعمرى أن أصل الانزعاج لا ينكر ، اذ الطبع مجبول على الأمن من حلول المنايا ، وانما ينكر الافراط فيه والتكليف ، كمن يخرق ثيابه ويلطم

وجهه ويعترض على القدر ، فان هذا لا يرد فائتا ، لكنه يدل على خور الجازع ، ويوجب العقوبة والسلام .

(فصل)

وليعلم أهل المصائب أنه لولا محن الدنيا ومصائبها ، لأصاب العبد من أدواء الكبر والعجب والفرعنة وقسوة القلب ماهو سبب هلاكه عاجلا وآجلا ، فمن رحمة أرحم الراحمين أن يتفقده فى الأحيان بانواع من أدوية المصائب تكون حمية له من هذه الأدواء ، وحفظا لصحة عبوديته ، واستفراغا للمواد الفاسدة الرديئة المهلكة ، فسبحان من يرحم ببلائه ، ويبتلى بنعمائه . كما قيل :

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت ويبتلى الله بعض القوم بالنعم

فلولا أنه سبحانه وتعالى يداوى عباده بأدوية المحن والابتلاء ، لطغوا وبغوا وعتوا وتجبروا فى الارض ، وعاثوا فيها بالفساد ، فان من شيم النفوس اذا حصل لها أمر ونهى ، وصحة وفراغ ، وكلمة نافذة من غير زاجر شرعى يزجرها ، تمردت وسعت فى الأرض فسادا ، مع علمهم بما فعل بمن قبلهم ، فكيف لوحصل لهم مع ذلك إهمال؟ ولكن الله سبحانه وتعالى اذا أراد بعبده خيراً سقاه دواء من الابتلاء والامتحان على قدر حاله ، يستفرغ منه الادواء المهلكة ، حتى اذا هذبه ونقاه وصفاه ، أهله لأشرف مراتب الدنيا وهى عبوديته ، ورقاه أرفع ثواب الآخرة وهى رؤيته .

(فصل)

قد يحصل للعابد الجاهل بمصيبته من الجزع ما يسوء الناظر اليه ، والسامع عنه ، من الاعتراض على الاقدار ، وما ذاك الا لادلاله بعبادته ، فانه قد شوهد أن خلقا كثيرا من أهل الدين والخير عند موت أحبابهم جرى منهم أمور ينكرها العقلاء من الناس ، فمنهم من خرق ثيابه ، ومنهم من لطم خده ، ومنهم من اعترض على القضاء والقدر ، قال ابن الجوزى : رأيت رجلا كبيرا أعرفه قد قارب الثمانين ،

وهو من أهل الدين المحافظين على الجماعة ، فمات ولد لابنته ، فقال: ماينبغي لأحد أن يدعوا فانه مايستجيب له ، ثم قال : ان عاندنا فما يترك انا ولداً ، فعلمت أن صلاته وفعله للخير عادة ، لا انه ينشأ عن معرفة إيمان ، وهؤلاء الذين يعبدون الله على حرف . ثم قال ابن الجوزى : وحدثني خالى لعمى محمد بن عثمان قال : كنت مشداً بقرية التل ، فسمعت عن شيخ قد جاوز الثمانين ولا يصلى ، وقد كان قبل ذلك كثير الصلاة مع الجماعة وفعل الخير ، ثم ترك ذلك ، فدعوته وقلت : ياشيخ لم لا تصلى ؟ فقال : وكيف أصلى وكان لى أولاد فماتوا ، وكان لى غنم ففنيوا ، فأنا ما بقيت أصلى له ولا ركعة . فضربته وطفت به البلد ، فكان بعد ذلك يواظب الجامع ، انتهى ماذكره . فلاشئ أنفع من العلم ، لأن العالم لو حصل له هلع شديد فى مصيبته يعلم أنها زلة منه ، فيدرى كيف يتنفس ، والعابد الجاهل كلما غاص الى أسفل يظن أنه صاعداً الى فوق ، فاذا امتحن الشخص ينبغى له أن يتداوى بالأدويه الشرعية ، فانه يقال : عند الامتحان يكرم الشخص أو يهان . أما علم أنه لابد من الفرقة ؟ وقد روى داود عن الحسن بن جعفر عن أبى الزبير عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قال جبريل : يامحمد عش ماعشت فانك ميت وأحبب من شئت فانك مفارقه واعمل ما شئت فانك ملاقيه » فنعوذ بالله من عدم الصبر عند المحنة ، ونسأله الثبات فى الأمر ، فانه والعياذ بالله يخاف على الشخص من سوء الخاتمة اذا سخط الأقدار ، ونازع القضاء والقدر أهله ، فنسأل الله تعالى حسن الخاتمة

(فصل)

ينبغى للمصاب بنفسه ، أو بولده ، أو بغيرهما ، أن يجعل فى المرض مكان الانين ذكره الله تعالى ، والاستغفار والتعبد ، فان السلف رحمهم الله تعالى كانوا يكرهون الشكوى الى الخلق ، وهى وان كان فيها راحة الا أنها تدل على ضعف وخور ، والصبر

عنها دليل قوة وعز ، وهي اشاعة سر الله تعالى عند العبد ، وهي تؤثر شماتة الاعداء ورحمة الاصدقاء . قال الشاعر :

لاتشكون الى صديق حالة تأتيك فى السراء والضراء
فلرحمة المتوجعين مرارة فى القلب مثل شماتة الاعداء

وذكر ابن أبي الدنيا باسناده الى اسماعيل بن عمرو قال : دخلنا على ورقاء بن عمر وهو فى الموت ، فجعل يهلل و يكبر و يذكر الله عز وجل ، وجعل الناس يدخلون عليه و يسلمون عليه فيرد عليهم السلام ، فلما كثروا عليه أقبل على ابنه فقال : يابنى اكفنى رد السلام على هؤلاء لا يشغلونى عن ذكر ربى عز وجل . وعن أبى محمد الحريرى قال : حضرت عند الجنيد قبل وفاته بساعتين فلم يزل تاليا وساجداً ، فقلت له : ياأبا القاسم قد بلغ بك ما أرى من الجهد ، فقال : يا أبا محمد احوج ما كنت اليه هذه الساعة ، فلم يزل كذلك حتى فارق الدنيا . وقد روى فى حديث أن ابليس لا يكون فى حال أشد منه على ابن آدم عند الموت ، يقول لأعوانه : دونكموه ، فانه ان فاتكم اليوم لم تلحقوه ، واعلم رحمك الله أن الاعمال بخواتيمها ، فانه ربما أضله فى اعتقاده ، وربما حيل بينه وبين التوبة ، وغير ذلك مما هو محتاج اليه ، وربما وقع منه الاعتراض على القضاء والقدر ، فينبغى للمصاب بنفسه أو بغيره أن يعلم أو يعلم لغيره أنها صبر ساعة ، فيتجلد ويحارب العدو جهد طاقته ، فبصدقه تحصل له عليه الاعانة من الله ، و يعلم أيضاً ان التشديد عليه أو على غيره فى النزع هو فى الغالب من كرامة العبد على الله عز وجل فان أشد الناس بلاء الانبياء ، ثم الصالحون ، ثم الامثل فالأمثل ، وقوله صلى الله عليه وسلم : «ما أشد مرارة الموت» وقول أبو عبيدة : أخنق خنقك فو عزتك انك تعلم أن قلبى يحبك . وقد روى الامام أحمد عن الوليد بن مسلم الاوزاعى عن عمر بن عبد العزيز انه قال : ما أحب أن يهون على سكرات الموت انه آخر ما يكفر عن المرء المسلم * وقال عبدالله بن

الامام أحمد : حدثني معمر حدثني شريك عن ابراهيم بن مهاجر عن ابراهيم النخعي قال: كانوا يستحبون للمريض أن يجهد عند الموت . وباسناده عن ابن عباس قال : آخر شدة يلقاها المؤمن عند الموت. كانت عائشة رضى الله عنها تقول : مات فلان ولم يعالج . قال الحافظ بن ناصر : ـ يعنى انه لم يعالج انه لم يحصل له فى مرضه وعند موته ما يكون كفارة لذنوبه ـ وعن ثابت عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل على شاب وهو فى النزع . فقال: « كيف تجدك » قال : أرجو الله وأخاف ذنوبى . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :« لا يجتمعان فى قلب عبد فى مثل هذا الموطن الا أعطاه الله مايرضى أو أمنه مما يخاف» فمن خاف الله وحفظه فى صحته حفظه فى مرضه ، ومن راقب الله فى خطر حرسه الله فى حركاته وسكناته ، وفى حديث ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال :« احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده أمامك تعرف الى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة» وكما فى قصة يونس عليه السلام لما تقدم له عمل صالح قال : (فلولا انه كان من المسبحين للبث فى بطنه الى يوم يبعثون) ولما لم يكن لفرعون عمل خير قط لم يجد وقت الشدة متعلقا فقيل له : (آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين) فمن ضيع الله فى صحته فانه يضيع فى مرضه والله أعلم *

﴿ فصل ﴾

وليعلم المصاب أن الجزع لايرد المصيبة بل يضاعفها، وهو فى الحقيقة يزيد فى مصيبته ، بل يعلم المصاب أن الجزع يشمت عدوه ، ويسوء صديقه ، ويغضب ربه ، ويسر شيطانه ، ويحبط أجره ، ويضعف نفسه ، واذا صبر واحتسب أخزى شيطانه وأرضى ربه وسر صديقه ، وساء عدوه ، وحمل عن اخوانه وعزاهم هو قبل أن يعزينه فهذا هو الثبات فى الأمر الدينى ، قال النبى صلى الله عليه وسلم : « اللهم إنا نسألك الثبات فى الامر » فهذا هو الكمال، الأعظم لا لطم الخدود وشق الجيوب ، والدعاء

بالويل والثبور ، والتسخط على المقدور . قال بعض الحكماء : العاقل يفعل فى أول يوم من المصيبة ما يفعله الجاهل بعد أيام ، ومن لم يصبر صبر الكرام سلا سلو البهائم ، يريد بذلك ماثبت فى الصحيح ان النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إنما الصبر عند الصدمة الاولى » وقال الأشعث بن قيس : إنك إن صبرت إيمانا واحتسابا والا سلوت كما تسلوا البهائم . بل يعلم المصاب انما يعقبه الصبر والاحتساب من اللذة والمسرة أضعاف مايحصل له ببقاء ما أصيب به لو بقى عليه ، ويكفيه من ذلك بيت الحمد الذي يبنى له فى الجنة على حمده لربه واسترجاعه على مصيبته ، فلينظر أى المصيبتين أعظم ، مصيبته العاجلة بفوات محبوبه ، أو مصيبته بفوات بيت الحمد فى جنة الخلد . وفى الترمذى مرفوعا : « يود ناس لو أن جلودهم كانت تقرض بالمقاريض فى الدنيا لما يرون من ثواب أهل البلاء » وليعلم المصاب الجازع وان بلغ به الجزع غايته ونهايته فآخر أمره الى صبر الاضطرار وهو غير محمود ولا مثاب عليه ، فانه استسلم للصبر وانقاد اليه على رغم أنفه . قال يحيى بن معاذ : ابن آدم مالك تأسف على مفقود لا يرده عليك الفوت ، ومالك تفرح بموجود لايتركه فى يديك الموت ؟ فاذا علم الجازع على المصيبة ان الجزع لايرد مافات ، وانه يسر الشامت ، فأى عقل لمن لم يتفكر فى العاقبة ، ويذكر ماله الى مصيبة أصابت غيره انها تصيبه فى نفسه وانه أمر لا بد منه ، فليستعد له ، وكانت امرأة من العابدات بالبصرة تصاب بالمصائب فلا تجزع ، فذكروا لها ذلك . فقالت : ما أصاب بمصيبة فاذكر معها النار الا صارت فى عينى أصغر من الذباب * ومما يسلى العبد قول بعض الحكماء : قد مات كل نبى ومات كل نبيه ولبيب وفقيه وعالم فلا تجزع ولا يوحشنك طريق الخلائق فيها . وقال بعض السلف وقد سأله رجل فقال عظنى فقال : انظر منك الى آدم هل ترى منهم عين تطرف ؟ فقال : حسبك *

(فصل)

ومما يسلى أهل المصائب : أن المصاب اذا صبر واحتسب ، وركن الى كريم ، ورجاء أن يخلف الله تعالى عليه ، ويعوضه عن مصابه ، فان الله تعالى لا يخيبه بل يعوضه فانه من كل شيء عوض الا الله تعالى فما منه عوض. كما قيل :

من كل شيء اذا ضيعته عوض وما من الله إن ضيعته عوض

بل يعلم أن حظه من المصيبة ما يحدثه له ، فمن رضى فله الرضى ، ومن سخط فله السخط . فاختر لنفسك خير الحظوظ أو شرها ، فان أحدثت له سخطا وكفراً كنت فى ديوان الهالكين ، وإن أحدثت له جزعاً وتفريطا فى ترك واجب أو فعل محرم كنت فى ديوان المفرطين ، وإن أحدثت له شكاية وعدم صبر ورضى كنت فى ديوان المغبونين ، و إن أحدثت له اعتراضاً عليه وقدحا فى حكمته ومجادلة فى الاقدار ، فقد قرعت باب الزندقة وفتح لك ووجته . فاحذر عذاب الله يحل بك فانه لمن خالفه بالمرصاد . وان أحدثت له صبراً وثباتا لله كنت فى ديوان الصابرين ، وإن أحدثت له رضى بالله ورضى عن الله وفرحا بقضائه كنت فى ديوان الراضين ، وإن أحدثت له حمداً وشكراً كنت فى ديوان الشاكرين الحامدين ، وإن أحدثت له محبة واشتياقا الى لقائه كنت فى ديوان المحبين المخلصين * وفى مسند الامام أحمد والترمذى من حديث محمود بن لبيد أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: « إن الله اذا أحب قوما ابتلاهم ، فمن رضى فله الرضى ومن سخط فله السخط » زاد الامام أحمد : « ومن جزع فله الجزع » . فانفع الادوية للمصاب موافقة ربه وإلهه فيما أحبه ورضيه له وان خاصية المحبة وسرها موافقة المحبوب . فمن ادعى محبة محبوب ثم سخط ما يحبه وأحب ما يسخطه فقد شهد على نفسه بكذبه ، وأسخط عليه محبوبه . قال أبو الدرداء رضى الله عنه : ان الله اذا قضى قضاء أحب أن يرضى به .

وكان عمران بن حصين رضى الله عنه يقول فى مرضه: أحبه الىّ أحبه اليه . وقال بعده أبو العالية : وهذا دواء المحبين وعلاجهم لا نفسهم . ولا يمكن كل أحد أن يتعالج به ، فانظر هذه الطرائق واختر وفقنا الله و إياك لما يحب *

(فصل)

نافع لمن نظر فيه ، وارد فيمن يفرح بالمصائب ويطلبها نظرا الى ثوابها

روى ابن أبى حاتم باسناده فى تفسيره عن خالد بن يزيد عن عياض عن عقبة انه مات له ابن يقال له يحيى ، فلما نزل فى قبره قال له رجل: والله ان كان لسيد الجيش فاحتسبه ، فقال والده: وما يمنعنى أن أحتسبه وكان من زينة الحياة الدنيا ، وهو اليوم من الباقيات الصالحات . فهذا رجل صابر راض محتسب ، ما أحسن فهمه وحسن تعزيته لنفسه وثقته بما أعطاه الله من ثواب الصابرين. وعن ثابت قال :مات عبد الله ابن مطرف ، فخرج أبوه مطرف على قومه فى ثياب حسنة وقد أدهن ، فغضبوا ، فقالوا : يموت عبد الله وتخرج فى مثل هذه مدهنا ؟ قال : أفأستكين لها وقد وعدنى ربى تبارك وتعالى عليها خصالا كل خصلة منها أحب الى من الدنيا كلها ، قال تعالى: (الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله و إنا اليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون) أفأستكين لها بعد ذلك ؟ ثم قال ثابت : قال مطرف ماشئ أعطى به فى الآخرة قدر كوز من ماء الا وددت انه أخذ منى فى الدنيا . رواه الامام أحمد فى كتاب الزهد . وعن محمد بن خلف قال: كان لابراهيم الحربى ابن كان له احدى عشرة سنة ، حفظ القرآن ولقنه من الفقه جانبا كبيراً قال فمات . فجئت أعزيه فقال : كنت أشتهى موت ابنى هذا . قال فقلت له: يا أبا اسحق أنت عالم الدنيا تقول مثل هذا فى صبى قد أنجب ولقنته الحديث والفقه ؟ قال : نعم ! رأيت فى منامى كأن القيامة قد قامت وكأن صبيانا بايديهم قلال فيها ماء يستقبلون الناس فيسقونهم ، وكان اليوم يوماً حاراً شديداً حره . قال فقلت

لأحدهم : اسقنى من هذا الماء ، قال فنظر الى وقال : ليس أنت أبى . قلت : فأى شئ أنتم ؟ قال : فقال لى نحن الصبيان الذين متنا فى دار الدنيا وخلفنا آباؤنا فنستقبلهم فنسقيهم الماء ، قال : فلهذا تمنيت موته . وروى البيهقى باسناده عن ابن شوذب : أن رجلا كان له ابن لم يبلغ الحلم ، قال فأرسل الى قومه أن لى حاجة ؟ قالوا نعم ! وماهى ؟ قال انى أريد أن أدعو على ابنى هـذا أن يقبضه الله تعالى وتؤمنون على دعائى ، فسألوه ذلك ، فأخبرهم أنه رأى فى منامه كأن الناس جمعوا ليوم القيامة ، فأصاب الناس عطش شـديد ، فاذا الولدان قد خرجوا من الجنة معهم الأباريق فابصرت ابن أخ لى ، فقلت : يافلان اسقنى ، قال : ياعم إنا لا نسـقى الا الآباء . قال : فاحببت أن يجعل الله ولدى هذا فرطا لى ، فدعا ، فأمنوا على دعائه ، فلم يلبث الغلام الا يسيراً حتى مات . وقد روى ابن عساكر باسناده عن سهيل بن الحنظلية الانصارى ـ وكان لا يولد له ـ فقال لأن يولد لى ولو سقط فاحتسبه أحب إلى من أن يكون لى الدنيا بأجمعها . وكان ابن الحنظلية ممن بايع تحت الشجرة * وذكر ابن عساكر أيضا عن الليث بن سعد قال : حدثنى يزيد بن أبى حبيب ، ان ابنا لعياض ابن عقبة حضرته الوفاة وكان عياض غائباً ، فقالت أم الغلام : لو كان أبو وهب حاضرا لقرت عينه . فلما حضرت وفاة عياض بن عقبة قال لاخيه أبا عبيد : يهنئك الظفر قد كنت أرجو أن تكون قبلى فاحتسبك . وقال أبو مسلم الخولانى رحمه الله : لان يولد لى مولود يحسن الله نباته حتى اذا استوى على شبابه وكان أعجب مايكون الى قبضه الله تعالى منى أحب إلى من أن تكون الدنيا وما فيها لى . وروى عن الامام القفال قال : كان فى جوارى رجل يأبى التزويج ، فلما كان فى بعض الليالى استيقظ من نومه فى الليل ونادى زوجونى زوجونى . فسئل عن ذلك فقال : لعل الله يرزقنى ولداً يقبضه قبل البلوغ وقبل موتى ، قيل وكيف ذلك ؟ قال : رأيت فى المنام كأن القيامة قد قامت والخلق فى الموقف وأنا معهم ، وقد كظنى العطش واذا قـد ظهر

أطفال بأيديهم أباريق من فضة مغطاة بمناديل من نور يتخللون الجمع ويسقون واحداً بعد واحد ، فمددت يدى اليهم وقلت لبعضهم : اسقنى ، فقد أجهدنى العطش ، فنظر إلى شزراً وقال : ليس لك فينا ولداً ، انما نسقى آباؤنا وأمهاتنا . فقلت : من أنتم ؟ قالوا : أطفال المسلمين * وقال أبو الحسن المدايني :دخل عمر بن عبد العزيز على ابنه فى وجعه فقال : يابنى كيف تجدك ؟ قال: تجدنى فى الحق ، قال : يابنى لان تكون فى ميزانى أحب إلى من أن أكون فى ميزانك . فقال: يا أبه لان يكون ما تحب أحب إلى من أن يكون ما أحبه * وروى ابن أبى شيبة باسناده عن ثابت البنانى : أن صلة بن أشيم كان فى غزاة له ومعه ابن له ، فقال له : أى بنى تقدم فقاتل حتى أحتسبك ، فحمل فقاتل حتى قتل .ثم تقدم أبوه فقتل فاجتمعت النساء فقامت امرأته معاذة العدرية فقالت للنساء مرحباً إن كنتن جئتن لتهنئنى مرحبا بكن وان كنتن جئتن لغير ذلك فارجعن * وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قلت يارسول الله أى الناس أشد بلاء ؟ قال : الانبياء ، قلت : ثم من ، قال الصالحون ، ان كان أحدهم ليبتلى بالفقر حتى ما يجد الا العباءة يحتويها وان كان أحدهم ليفرح بالبلاء كما يفرح أحدكم بالرخاء. رواه ابن ماجه من حديث طويل * وروى الامام أحمد فى كتاب الزهد وابن ماجه فى سننه عن أبى ذر. قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:« ليس الزهادة فى الدنيا بتحريم الحلال ولا باضاعة المال ، ولكن الزهادة فى الدنيا أن تكون بما فى يد الله أوثق منك بما فى يدك ، وأن تكون فى ثواب المصيبة اذا أصبت بها أرغب منك فيها لو أنها بقيت لك » وقال ابن الجوزى : ثنا ابن ناصر أنبا جعفر بن أحمد ثنا أبى ثنا هاشم عن ابن المبارك عن الحسن ثنا أبو الاخوص قال : دخلنا على ابن مسعود رضى الله عنه وعنده بنون له ثلاثة غلمان كأنهم الدنانير ، فجعلنا نتعجب من حسنهم ، فقال : كأنهم يغبطوننى ؟ قلنا: أى والله لمثل هؤلاء يغبط المسلم. فرفع رأسه الى سقف البيت وقد عشش

فيه خطاف وباض . فقال : والذى نفسى بيده لان أكون قد نفضت يدى من تراب قبورهم أحب إلى من أن يسقط عش هذا الخطاف و ينكسر بيضه. ثم قال : ماأصبحت على حال فتمنيت أنى على سواها * وروى هناد بن السرى فى الزهد عن كثير بن نميم الدارى قال: كنت جالساً مع سعيد بن جبير ، فطلع عليه ابنه عبد الله بن سعيد وكان به من الفقه ، فقال : إنى لاعلم خير حالاته ، فقالوا : وما هو ؟ قال : أن يموت فاحتسبه * وروى ابن أبى الدنيا باسناده عن سفيان قال سمعت سفيان يقول: ما فى الارض أحب إلى من سعيد وما فى الارض أحد يموت أحب إلى منه ، فمات ، فرأيته يبكى ؛ قال : قد كنت تمنى موته ، قال أذكر قوله آه جنبى * وفى تاريخ الرقة للحرانى ثنا أحمد بن بديع ثنا أبى قال سمعت عمر ابن ميمون بن مهران يقول كنت مع أبى ونحن نطوف بالكعبة ،فلقى أبى شيخا فعانقه أبى ، ومع الشيخ فتى قريبا منى ، فقال له أبى : من هذا ؟ قال ابنى . فقال: كيف رضاك عنه قال ما بقيت خصلة يا أبا أيوب من خصال الخير إلا وقد رأيتها فيه إلا واحدة ، قال : وما هى ؟ قال : كنت أحب أن يموت وأوجر فيه . قال ثم فارقه أبى ، قال فقلت لابى : من هذا الشيخ ؟ قال : هذا مكحول *

والمقصود أن هذا المقام مقام عظيم شريف لمن يطلب المصيبة ويفرح بها نظراً الى ثوابها وما يفعل ذلك أحد حتى يعلم من نفسه القوة والصبر والجلد والركون الى دعوى النفس ، وما أكثر ما تخلف الوعد وتنقض العهد ، فان الغالب متى ماأظهرت الدعوى وكلت اليها ، وطولبت بتصحيح دعواها ، فتقصر عنه الحقيقة ، وتميل عن تقويم الطريقة . كان سحنون رحمه الله يقول : قد رضيت بكل ما تقتضيه فابتلينى بما شئت فابتلاه الله بحصار البول، فما صبر، فكان يدور على الصبيان ويقول :ادعوا لعمكم الكذاب. فالطريقة الكاملة قوله ﷺ: «لا تتمنوا لقاء العدو وسلوا الله العافية » واعلم أن النية فى طلب الولد وقصده وقصد بقائه ،

اذا صحت النية حصل الثواب الجزيل على النيتين جميعا ، لأن الأعمال بالنيات ، فانه ثبت عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال : ما من أهل ولا مال ولا ولد الا وأنا أحب أن أقول عليه : انا لله وانا اليه راجعون ، الا عبد الله بن عمر فانى أحب أن يبقى فى الناس . يؤيد ذلك ما ثبت فى صحيح مسلم ان النبى ﷺ قال « اذا مات الانسان انقطع عمله الا من ثلاث ، من صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له » وفى حديث أنس مرفوعا : « سبع يجرى أجرها للعبد بعد موته ، فذكر منها أو ترك ولدا يستغفر له بعد موته » وهذا عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قد سماه النبى ﷺ الرجل الصالح ، أو العبد الصالح ، ولا شك أن العبد إذا حصل له أجر مستمر بعد موته هو أولى من حصول أجر فى حياته ثم ينقطع بالموت ، فان العبد من أحوج الناس بعد موته الى الحسنات ، وبموته قد انقطع عمله الا ما أخبر به الصادق المصدوق فى هذا الحديث المتقدم ، فطلب الولد وبقائه أنفع للعبد فيما فهمت ، ولكن أولئك لما خالط قلوبهم قوة الايمان والتصديق بالقضاء والقدر ، والرضاء به ، برزوا بالقول وقل من يصبر على تحمل البلوى عند الحقيقة والله أعلم .

.....

﴿ الباب الثانى ﴾

فى البكاء على المصيبة وما ذكر العلماء فى ذلك

البكى أصله بكوى على فعول قال الجوهرى : البكاء يمد ويقصر ، فاذا مددت أردت الصوت الذى يكون مع البكاء ، وإن قصرت أردت الدموع وخروجها ، وبكيت الرجل وبكيته اذا بكيت عليه . قال الشاعر :

بكت عينى وحق لها بكاها ... وما يغنى البكاء ولا العويل